

## البلاغة والتداولية

تعد التداولية من أحدث الاتجاهات اللغوية التي ظهرت على ساحة الدرس اللساني الحديث بعد أنت كانت تسمى "سلة مهملات اللسانيات"؛ لأن المنظرين كانوا يدرجون ضمنها كل اتجاه أو دراسة لاتتماشى مع مبادئ اللسانيات ويخرج عن حدود اللغة.

وتعنى اللسانيات التداولية بأقطاب العملية التواصلية، فتهتم بالمتكلم ومقاصده، بعده محرراً لعملية التواصل، وتراعي حال السامع أثناء الخطاب، كما تهتم بالظروف والأحوال الخارجية المحيطة بالعملية التواصلية، ضمناً لتحقيق التواصل من جهة، ولتستغلها في الوصول إلى غرض المتكلم وقصده من كلامه من جهة أخرى.

فالتداولية إذن علم تواصلية جديد رحب يستمد معارفه من مشارب مختلفة، كعلم الاجتماع وعلم النفس المعرفي، واللسانيات والبلاغة وعلم الاتصال والأنثروبولوجيا والفلسفة التحليلية.

### نشأة التداولية:

يعود الفضل إلى إدخال مصطلح Pragmatique في معجم اللسانيات الحديثة إلى شارل موريس Charles Morris في سنة ١٩٣٨ في كتابه: أسس نظرية العلامات، حيث حدد ماهيتها كجزء من السيميائية أو علم العلامات وأحد أفرعها الثلاثة (إلى جانب التركيب والدلالة)، تهتم بدراسة العلاقة بين العلامات وبين مستعملها ومؤولها.

### مفهوم التداولية:

تعددت تعريفات التداولية وماهية هذا المنهج، ولعل أبسط تعريف له هو: دراسة اللغة أثناء استعمالها واستخدامها في سياق التخاطب، تقوم على مراعاة كل ما يحيط بعملية التخاطب، للوصول إلى المعنى وإحداث الأثر المناسب، بحسب قصد صاحبه وتبحث في الشروط اللازمة لضمان نجاعة الخطاب وملاءمته للموقف التواصلية الذي يوجد فيه المتلفظ بالخطاب والسامع له.

ولقد تعددت المقابلات العربية للمصطلح الأجنبي Pragmatique، فقليل براجماتيكا أو البراغماتية والبراغماتيك، البرجماتية والبراغماتيك كمصطلحات معربة له، كما نجد مقابلات عربية مترجمة للمصطلح مثل: التداوليات، التداولية، المقامية، الوظيفية، السياقية، الذرائعية، النفعية. غير أن المصطلح "التداولية" هو الذي صار شائعاً بين المختصين ومستعملاً بينهم.

### أهم مبادئها:

تعددت الدراسات التداولية منها: أفعال الكلامية والاستلزام التحادثي أو التخاطبي والقصدية والملاءمة والحجاج، وسنقصر الحديث على أهم الدراسات التي ساهمت في بناء هذه النظرية الضخمة.

### ١. نظرية أفعال الكلام:

من أحد أهم مجالات التداولية ما أطلق عليه الباحثون اسم:

## "نظرية الأفعال الكلامية" "Theory of speech acts"

يعد الفيلسوف جون أوستين Jhon Austin المؤسس الأول لنظرية الأفعال الكلامية، وتتلخص نظرية أوستين في فكرة أننا يمكن أن ننجز بالأقوال أفعالا، وأن كثيرا من الجمل التي لا يمكن أن نحكم عليها بالصدق أو الكذب لا تستعمل لوصف العالم بل تسعى لتغييره، فجملة "آمرك بالصمت" لا تصف واقعا بل تسعى لتغيير حالة الضجيج إلى الصمت.

ويمكن الحكم على هذه الأفعال الإنشائية لا بمعيار الصدق والكذب، وإنما بمعيار التوفيق أو الإخفاق أو كما أطلق عليها أوستين "unhappy – Happy".

فقد تأمر الأم مثلا ابنها قائلة: "نظف أسنانك" ويرد عليها: "أنا لا أشعر بالنعاس" فالأم هنا لم تقل كلاما صادقا أو كاذبا، بل قدمت أمرا لابنها، وأمرها هنا أخفق لأن الابن لم يمتثل لأمرها، ولو قام بالفعل لقلنا أن أمر الأم قد تكلل بالنجاح.

وقد ميّز أوستين بين ثلاثة أنواع، نطبقها على المثال السابق:

– العمل القولي: التلفظ بجملة "نظف أسنانك".

– العمل المتضمن في القول: الفكرة التي تحملها الجملة، ووصلت للابن بمجرد سماعها.

– عمل تأثير القول: فنجد في رد الابن على أمه وأثر هذا الأمر عليه.

ثم خلفه تلميذه J. Seark جون سيرل الذي طور نظرية أستاذه.

### ٢. نظرية المحادثة.

أولت النظرية التداولية اهتماما بالدور الذي يقوم به المتخاطبون في العالم الاجتماعي، فهؤلاء المتخاطبون لا يتفاعلون فيما بينهم بواسطة اللغة فحسب؛ بل هم يقبلون ذلك التفاعل ويتعاونون عليه لضمان نجاح عملية التواصل.

وقد اقترح بول جرايس Paul Grice في مقاله الشهير "المنطق والحوار" مفهوم "حكم

المحادثة"، وقد كان جرايس منشغلا بفكرة كيف يكون ممكنا أن يقول المتكلم شيئا ويعني به شيئا آخر؟

وحالاً لهذا الإشكال اقترح جرايس "مبدأ التعاون" وشق منه أربعة قواعد هي:

١. مبدأ الكم: ويعني لتكن إفادتك على قدر حاجته/ لا تجعل إفادتك تتعدى القدر المطلوب.

٢. مبدأ الكيف: ويعني لا تقل ما تعلم كذبه/ لا تقل ما ليست لك عليه دليل.

٣. مبدأ المناسبة: ويعني ليناسب مقالك مقامك.

٤. مبدأ الطريقة: ويعني لتحترز من الخفاء في التعبير/ لتحترز من الاشتباه في اللفظ/ لتتكلم

بإيجاز/ لترتب كلامك.

وإتباع هذه المبادئ وما جاءت به من توصيات؛ كفيل من وجهة نظره؛ بنقل المعنى وتيسير

المحادثة نحو الإفهام وتحقيق الهدف المشترك؛ تعويلا على التعاون بين طرفي الخطاب.

ولتوضيح ذلك نضرب المثال التالي: حوار بين زوج (أ) وزوجة (ب):

(أ) - أين مفاتيح السيارة؟

(ب) - على المائدة.

تم تحقيق "مبدأ التعاون" في هذا الحوار القصير، فلقد أجابت الزوجة (ب) إجابة واضحة (الطريقة)، وكانت صادقة (الكيف)، واستخدمت القدر المطلوب من الكلمات دون زيادة (الكم)، وأجابت إجابة ذات صلة وثيقة بسؤال زوجها (المناسبة).

وقد يخالف المتحدثون هذه القواعد، فينتقل الفائدة من المعنى الصريح إلى المعنى الضمني، فإذا قال قائل: «لقد اشتد بنا الحر في هذا المكان»، فهو يقصد أن يبادر أحد المستمعين إلى فتح النافذة، وهذا القول يخل بـ"قاعدة الكم"؛ إذ يخبر بما هو معلوم لدى المخاطبين؛ إلا أن في باطنه "طلب" وليس "إخبار"، فهذا الإخلال يستلزم الأمر أو الطلب وليس الإخبار، وهذا ينقلنا إلى نظرية الاستلزام التحادثي وهي عندما يُخل المتكلم عن قصد وعلانية بقواعد التخاطب، فإنه يهدف إلى إيصال معنى آخر ضمني داخل الكلام.

#### علاقة البلاغة بالتداولية:

البلاغة العربية في دراستها للخطابات المتنوعة من قرآن وحدث وشعر وخطابة، اهتمت بتقديم توصيف لعناصر العملية التواصلية (متكلم وسماع ورسالة ومقام ومرجع وحتى القناة التواصلية) وفي إطار هذا التوصيف اكتسبت البلاغة العربية أبعادًا لسانية وتداولية مهمة.

فأول ما تتصرف إليه البلاغة هو "الإبلاغ" فتعالج كيفية التأثير في الآخر وإقناعه والمقاصد التي يهدف المتكلم إلى تحقيقها، وهذا يعد من صميم البحث التداولي، الذي يعالج درجات التفاعل الاتصالي بين المتكلم والمخاطب وشدة التأثير وقوته، التي تتم بالأفعال الكلامية والأدوات المختلفة الموظفة في الخطاب.

ثم إن المتكلم يجب أن يبلغ في استعماله الكلام الحد الذي يعطي به تراكيب الكلام حقها، فيكون فصيحاً وملتزماً بما ثبت في متن اللغة من قواعد النحو والصرف، والدلالة والمعجم، ومختزلاً عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وعدم التعقيد في أداء المعاني، وهي جوانب تعنى بها اللسانيات التداولية، من خلال دراسة اللغة في سياقات استعمالها.

فللمتكلم إذن دور بارز سواء في البلاغة العربية أو اللسانيات التداولية بعدّه منتج الخطاب والمتلفظ به، فالمتكلم أساس فهم المعنى وتحديد الدلالات ومقاصدها، لأنه يرتبط بما ينويه من كلامه وما يروم تحقيقه.

ويجب على البليغ أن يوظف في كلامه طائفة من الأدوات البلاغية نحو التشبيه وأنواعه والمجاز والكناية والاستعارة بأنواعها كي يكون كلامه (خطابه) بليغاً، في صورة تأسر المتلقي وتؤثر فيه، وبذلك

يضمن المتلفظ بالخطاب تلقي سامعه لخطابه على النحو الذي يرمي إليه، وتعد هذه الجوانب البلاغية المرتبطة بالخطاب مؤشرات تداولية مهمة تعنى بما قضايا التداولية أيما عناية، لكون تلك المؤشرات المطلوبة في الكلام البليغ تكشف عن قصد المتكلم ودرجة شدته في أفعاله الخطائية المتضمنة في جملة أقواله الصادرة عنه، كما تعد مؤشرات موجهة للخطاب نحو سامعه، على النحو الذي يريده المتلفظ بالخطاب. إذن تشترك البلاغة والتداولية في الاعتماد على اللغة، بعدّها أداة لممارسة الفعل على المتلقي في سياقات مخصوصة ولذلك نجد من المحدثين من يسوي بين البلاغة والتداولية، إذ هما علمان يهتمان بعملية التلفظ والعوامل المتحركة فيها، قبل الكلام، وأثناء التلفظ بالخطاب، وإلى غاية إنجازها، فهما يتفقان في دراسة الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم في عملية التواصل وعوامل المقام المؤثرة في اختياره أدوات معينة دون أخرى للتعبير عن قصده، كالعلاقة بين الكلام وسياق الحال، وأثر العلاقة بين المتكلم والمخاطب على الكلم والمقاصد من الكلام.

ويكenna القول بأن فهم البلاغة يعني فهم التداولية، فهما علمان متداخلان وقد تطور هذا التداخل فيما بعد إلى أن أصبحت التداولية تهتم بالسياق وأنواعه ونظريات أفعال الكلام وهذا كله موجود في الدراسة البلاغية للأدب، فالسياق ضروري في البلاغة والتداولية، والعلاقة الوطيدة بين السياق والنص هي نتيجة عن الموقف التواصلية الذي خاطب فيه المتكلم المتلقي مريدا من خطابه تحقيق قصد معين، وهذا ما يؤكد العلاقة الوثيقة بين التداولية والبلاغة؛ لأن البلاغة هي مطابقة مقتضى الحال، فلكي نؤثر في نفوس المخاطبين لا يصح أن نخاطبهم بما لا نستطيع أن تدركه عقولهم، أو بما يجرحهم في مشاعرهم وعواطفهم، أو بما لا يتفق وينسجم مع اهتماماتهم وحاجاتهم.